بل وشعيب نفسه هو رأس الزاوية في ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ لاختصاصه بالذكر قبلهم.

أم تعني الملة السلطة الزمنية إذ هم خرجوا عنها بسلطان التوحيد الجاهر بعد تقاة، وهؤلاء يتطلبون منهم العود في تلك السلطة مهما ظلوا مؤمنين أم رجعوا - إلّا شعيب - كافرين.

وعلى أية حال فلا نص هنا ولا ظاهر أو لمحة أن شعيباً كان في ملة الإشراك قبل رسالته، ومجرد الاحتمال الصالح حيث تحتمله الآية، كاف في تنجزه، حيث الاصطفاء والاجتباء بحق الرسل، المذكوران لهم في القرآن، إنه برهان صارم لا مردّ له، أنهم يصطفون من جموع الموحدين، فسابقة الإشراك لهم تناحر واصطفاءَهم.

إذاً فـ ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ لا تعود بمزرأة على شعيب ما دام احتمال عناية السلطة الزمنية من ﴿مِلَّتِنَآ﴾ قائمة، أم والملة الروحية بعود الذين آمنوا معه فيها دونه عليه السلام أم وعوده فيها مجاراةٌ لتخيل أنه كان فيها، ثم وليس القرآن ساكتاً عن تزييف ذلك التخيل الزائف الهارف الخارف، لمكان عساكر الآيات الدالات على سابقة الرسل السابغة بخالص الإيمان.

فالمرفوض - إذاً - بين المحتملات في ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ أنه عليه السلام كان في ملة الإشراك فيطلب منه العود فيها حتى لا يخرجنّ، وتبقى سائر المحتملات قائمة على سوقها، وكلها صالحة للعناية.

فـ ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَآ﴾ الزمنية تقية، لا تمس من كرامة إيمانه من ذي قبل.

وكذلك ﴿فِي مِلَّتِنَآ﴾ زعماً منهم أنه كان مشركاً كما هم إذ كان في تقية من دينه، والجوّ الرسولي في القرآن بيان لمحتد الرسل قبل ابتعاثهم أنهم مصطفون، فهو نقض لهذه التخيلة القاحلة.

وهكذا ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ واقعاً حيث يستثنى شعيب نفسه عن المخاطبين بـ ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ فإنه جمع يتحمل الاستثناء، مهما لم يتحمله ﴿يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ﴾ فإن شعيباً مستثنى بمحتد الرسالة المعنية بالقرآن عن أن يكون قبلها في ملة الإشراك.

ذلك، وذلك التطلب البعيد القاحل لم يكن ليختص بقوم شعيب، بل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[1] [2].

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ فأنتم تكرهوننا على العود في تلك الملة المشركة زمنياً أم روحياً أم فيهما معاً.

و«لو» هنا مجاراة تعني حتى على فرض استحالة كراهيتنا للعود في ملتكم رغم زعمكم، فلتفرضوا أننا لا نكرهه فتفرضوا علينا تلك العودة، ولكن ماذا إذا كنا كارهين كراهية بساطع البرهان، فقاطع الإيمان، فـ «لو» هنا تنديد بحتمية ذلك العود.

فالحمل على العود في ملة غير مرضية إبطالاً لحرّية الانتخاب، الحريّة لكل إنسان، إنه حمل يخالف الفطرة والعقلية والخيرة الإنسانية.

فلو أنكم حملتمونا على ذلك العود ببرهان يقنع لكنا عائدين، ففي عودنا دون أي برهان، وهناك ساطع البراهين تمنعنا عنه، إن فيه افتراء على الله، حيث القضية الرسالية وعلى هامشها القضية الإيمانية أن ذلك العود إنما هو بأمر الله:

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) راجع تفسير الفرقان آية ٤١: ٤٥ ج ١٣ - ١٤.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

فهذه فرية وقحة على الله ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ على إيماننا، فإن ضفة الإيمان - الصالح غير الكالح - وصفته، تمنعان عن العود إلى اللّاإيمان، فكما أن قالات الإيمان وحالاته وفعالاته هي من قضايا الإيمان، فعودنا إلى ملتكم - إذاً - هو أيضاً من قضايا الإيمان وذلك افتراء على الله أنه يأمرنا بذلك العود ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ فقد نجانا من ملة الإشراك زمنياً وروحياً فكيف نعود - إذاً - فيها ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ بصفة الإيمان ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ لكي يكون العود أيضاً بصفة الإيمان، على ضوء مشيئة الله، فها نحن مستسلمون لله خروجاً أم عوداً.

صحيح أن الله لا يشاء ولن. أن نعود فيها، ولكن مشيئته الطليقة بعد حاكمة حكيمة، فلو شاء لنا الإشراك لأشركنا بأمره وهو - إذاً - من التوحيد، كما شاء لنا التوحيد فوحّدناه بأمره، فنحن على أية حال تحت أمره وإمرته ورهن إشارته ومشيئته قضية كامل الإيمان وشامله.

وذلك أدب ولي الله مع الله أنه لا يمشي على هواه وإن كانت في عدم العودة إلى ملة الإشراك، فلذلك يستثني عدم عودته إليها بمشيئة الله! فلأن قضية الإيمان الصادق بالله ومشيئة الله هي التوحيد لله وعدم الانخراط في سلك المشركين بالله ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ اللّهم ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ أن نعود فيها، فالعودة - إذاً - هي قضية الإيمان بالله، وهي من توحيد الله في طاعته وعبادته، كما الخروج عنها قضية الإيمان، وقضية التسليم السليم لله أن نأتمر بأمر الله خروجاً وعوداً دونما وقفة لنفكر ما هو المغزى هنا وهناك، فإنه - إذاً - عبادة العقلية والمصلحية، دون خالص العبودية لله.

أجل وذلك هو رسم العبودية الوحيدة غير الوهيدة ألا يمنع العبد أي مانع منها مهما كان قاطعاً لا حول عنه، ومن أمثاله الأمثال قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل، حيث البراهين كلها معسكرة على حرمته، ولكن أمر الله تعالى يغضي كلها، بارزاً وحيداً في الميدان.

ففيما تعلم مصلحة في أمر من الله أو نهي فالطاعة سهلة، وفيما لا تعلم مصلحة ولا مفسدة، فهي صعبة، وأما فيما تكرس الآيات آفاقية وأنفسية أن فيه مفسدة ولكن الله يأمرك به دون ريبة، فالطاعة صعبة ملتوية، وهنا لك البلية العظيمة التي، الساقطون فيها كثير، والناجحون قليل قليل.

وهنا الجمع بين اسمي الله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَآ﴾ للتدليل على أن قضية ربوبيته الشاملة التسليم له كما يشاء، ولو شاء الإشراك أم أياً كان من ملة من الملل، أو نحلة من النحل.

فألوهيته تقتضي توحيده، كما هو قضية ربوبيته، فهو الواحد إلهاً وهو الواحد رباً، فلو شاء أن نشرك به وهو الواحد في ربوبيته، أو أن ندخل في ملة الإشراك زمنياً تقية أماهيه من مبرر، لكنا داخلين قضية التسليم الطليق لله ربنا.

فنحن المجاهيل و﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ فلو يعلم أن في العود في ملتكم خيراً فأمرنا به لعُدنا، ولكنه لا يعلم فيه خيراً إذ ليس فيه إلّا شر: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1] ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2] - ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[3]. وعدم علمه بشيء يوازي عدم ذلك الشيء.

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٨.

ولأن الله لا يشاء أن نعود في ملتكم ولن، فنحن إذاً صامدون في توحيده وفي الابتعاد عن ملتكم روحياً وزمنياً، فلن ندخل - إذاً - في ملتكم أبداً.

وحين تهددوننا بإخراجنا من قريتكم - كأنها هي قريتكم دوننا - فليست العقيدة الصالحة تنثلم وتتلعثم أو تتزعزع أمام أي تهديد ووعيد فـ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَآ﴾ لا سواه، وإليه انقطعنا لا سواه ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

ذلك، ونفس العود في ملة الإشراك هو افتراء على الله، كأن لا خير في ملة التوحيد قضية طبيعة الحال في التحيز بين الملتين، فاختيار ملة الإشراك على ملة التوحيد.

فهاتان - إذاً - فريتان على الله، إحداهما قضية الإيمان، وكأنه يأمرنا بتلك العودة، وأخراهما قضية التحيز المجرد عن الإيمان والإشراك مهما كان حالة الإيمان.

أجل، وإن تكاليف الخروج عن ملة الطاغوت - مهما عظمت وشقت - هي أقل وأهون من تكاليف الدخول في ملته.

فالدخول في حكم الطاغوت خروج عن نواميس الإنسانية كلّها حيث يذبح أتباعه على مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته ومناه، ثم يكلفهم عقولهم وعقائدهم وأموالهم وأعراضهم - بإعراضهم عن الله - لحدٍّ لا يملك والد ما ولده، ولا فتاته عن الدعارات وسائر العارات، وكلّ ما يملك بخطواته عن حركاته الصالحة كلها.

ذلك، وإلى إجابة نكدة من هؤلاء الأنكاد، لا تحمل إلّا تهديداً خاوياً:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

وهذه دعاية مستكبرة لعينة ضدَّ الرسالة الشعيبية تهدد أتباعه بالخسران

دون بيان أنه ما هي ماهية هذا الخسران، ليذهب بال المؤمن أي مذهب من ألوان الخسران: ديناً ونفساً ومالاً وعقلاً وعِرضاً وأرضاً أما هو من خسران يبتعد عنه أي إنسان، ولكن الإيمان الصامد كان قد أخذ موضعه من شغاف قلوبهم فلا يقلّبهم عنه أي كان، ثم كان عاقبة هؤلاء الأنكاد:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

دون حراك حيث خمدت نيرانهم وجمدت ثيرانهم وغيرانهم، ف:

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾:

لقد أرادوا إخراج شعيب والذين آمنوا معه بكلِّ إحراج، فأخرجهم الله من حياتهم وقريتهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ﴾: فلم يعمروا هذه الدار ولم يطل مقامهم فيها[1]، وكأن لم يكن لهم فيها آثار، حيث أخذتهم الرجفة بعمارهم وآثارهم مع أنفسهم البئيسة التعيسة، فلقد انطوت صحيفتهم عن صفحة الكون مشيعة بالتبكيت والإخمال، والمفارقة والانفصال.

ولعل في كتاب حبقوق النبي عليه السلام الباب الثالث الآية السابعة إشارة إلى رجفة مدين السالفة إضافة إلى المدائن الكسروية بميلاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونصها بالأصل الكلداني كالتالي:

«چادْرِى دِكُوشَن بَرْكَدْ پَرْدِدْ اَرْعا دِمِدْيَنْ»:

لقد تزعزت الچوادر والخيم في مدين.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

(١) غنى في مكان: إذا طال مكوثه فيه مستغنياً به عن غيره مكتفياً به.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وهم في قبضة الرجفة، ولمّا يموتوا، كما ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد أن ماتوا وقال ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ أصلية وفرعية بكلِّ بلاغ بالغ وبيان فائق، ثم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بعد البلاغ، جمعاً للنصح إلى بلاغ الحجة البالغة، تليين لما تصلّب منكم، من أدمغة وخراطيم مستكبرة فيكم وهي بعد عليكم، ولم آل جهداً في إنجائكم ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ولا يعني الأسى عليهم - إذاً - إلّا ما عساه نكران لعدل الله وحكمته، أم نقصان في بلاغ رسالته!.

ذلك، وهذا الخطاب العتاب باستفهام الإنكار، عذاب لهم فوق العذاب، سواء أكان عند نزول العذاب ولمّا يموتوا، أم وبعد موتهم، إعلاناً ببلاغ الحجة دون قصور فيها أم تقصير، وإعلاماً بأن لا مجال للأسى عليهم فإنهم عامدون عاندون في النكران، فمستحقون لعذاب الاستئصال.

أفبعد إبلاغ الرسالة والنصيحة يؤسى على قوم كافرين، ولا يؤسى على المستحق بالعدل والحكمة الربانية، حيث الأسى - إذاً - عساها استرحام على من جرى بحقه حكم الله!.

هنا وقفة للتعقيب على ذلك القصص وأضرابه، كشفاً عن خطوات ربانية من قدر الله بالمكذبين بالدين كيف يأخذهم في تقلّبهم وتغلّبهم بزعمهم وهم غافلون يلعبون أو نائمون.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ هما الأفعل من البائسة والضارة، وصفان لمحذوف أفضله الحالة، أو الحياة، ثم البأساء بأس في النفوس قلقاً واضطراباً، والضراء ضرّ في الأبدان والأموال والأولاد، فقد شملتا مضرة الروح والجسم فيما تحلقان على كلِّ كيان الإنسان.

وهذه الأخذة الربانية هي من مخلفات التكذيب بالنبيّين، أخذاً بالبأساء البائسة والضراء الضارة الضارعة في أحوال وأموال وبنين ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ إلى الله تائبين، فلما عتوا وبغوا وبقوا على تكذيبهم حيث لم تذكرهم البأساء والضراء: السيئة، جازيناهم بما تزيدهم سيئة العتو والغفلة الغفوة:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

فهنا ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ بأساء وضراء المذكّرة ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ الظاهرة المزمجرة أكثر من السيئة ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ ونموا في متطلبات حياة الحيونة المريحة، فظنوا أنهم في رحمة من الله مهما عتوا، ويكأن العتو مرضي لله حتى ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾: ضرّ وسرور، فهما يمسنا إذ هما فوضى جزاف لا يعنيان كرامة أو مهانة، فلا علينا أن نستمر في الكفر والكفران، ولأننا قد نكون مكرهين بالحسنة مكان السيئة ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أخذة مزمجرة مدمرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ موقفهم، و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خطأهم و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ استحقاقهم و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ نزول العذاب عليهم إلّا حين نزل إذ كان مباغتاً، وعلى الجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ إلّا فوضى، فلا يعني بلاء السيئة ولا جزاءً في حسنته وسيئته، بأساء وضراء، والحسنة سراء عبثاً أن يأخذ الله عباداً له بشدة في أنفسهم وأرزاقهم وأموالهم، ولا لإرواء غلة ولا شفاء إجنة أم يأخذهم بسراء مرحية مرخية تعطفاً عليهم بل هما بلاءان مختلفي الصورة، وإنما لإيقاظ فطرة نائمة وترقيق قلوب طال عليها الأمد ما كانت فيها بقية: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ...﴾[1].

(١) سورة الفجر، الآيات: ١٥-١٧.

كما ولا تعني الحسنة مكان السيئة واليسر مكان العسر والنعمة مكان الشظف، وعلى الجملة العفو الزيادة مكان النقيصة، إنها لا تعني إلّا جزاءً وفاقاً إن لم يضّرّعوا بالبأساء والضراء، فبلية الحسنة أصعب من بلية السيئة، ولذلك ترى أكثر الساقطين في البليات هم من المنعَمين حيث يكثرون وينتشرون، مسهلين العيش، متيسرين الحياة، معذِّرين تخلفاتهم أمام الله، فقد تعني ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ إلى جانب غورهم في زخرفات الحياة، اعتبارهم أنفسهم معفيين عن المسؤوليات، إباحيين في اللذات والشهوات، عائشين - إذاً - اللّامبالاة الطليقة، فكلُّ ما يصدر منهم عفو بلا أي تحرج أو مبالاة، فقد عفوا في أنفسهم وأموالهم وأولادهم نماء، وعفوا عفواً ولأن العفو تأتي بمعاني: الزيادة والانتقاص لازمة، وبمعنى التجاوز متعدية بـ«عن»[1] فطليقة ﴿عَفَواْ﴾ كما هنا قد تعنيها كلّها وفقاً لأدب اللفظ وعناية المعنى، فقد ﴿عَفَواْ﴾ بتلك الحسنات بعد السيئات زيادة ونمواً في أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومحاصيلهم، فعفوا انتقاصاً على نقصهم في نقضهم عهد الله، ثم ازدادوا عفواً حيث عفوا عن سيئاتهم أنفسهم بإباحية طليقة وكأنها مشروعة مرضية لله ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ قصداً إلى أنهما ليستا جزاءً وفاقاً لسيئات أو حسنات، إذ لم تكن لآبائنا حالتان مختلفتان تستجران الجزاءين هذين المتقابلين، وكذلك الأمر فينا نحن، فذلك جريان طبيعي في إقبال الدنيا وإدبارها دونما رباط لهما بحسنات أو سيئات، أم إن ذلك فوضى جزاف من الله دون أن تكون الضراء والسراء خلفية ربانية للسيئات والحسنات.

(١) فقد جاء العفو لكلا النمو والانتقاص فهم انتقصوا في نموهم ونموا في انتقاصهم، يقال: عفى النبت والشجر قصد تناول الزيادة وعفت آثارها زالت وعفى عنه أزال ذنبه.
إذاً فـ﴿عَفَواْ﴾ [الأعرَاف: ٩٥] دون أي متعلق تعم عفو الزيادة والنقيضة ومعهما العفو عن ذنوبهم كان ذنوبهم معفوة بما عفواً في نعمهم.

أم قد بلغ أمرهم في بلية الحسنة بعد السيئة أنهم تحسّنوا كآبائهم مستحقين للحسنة بتركهم شرعة الله التي يدعيها الأنبياء! إذ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[١] فنحن - إذاً - ماشون وفق مشيئة الله، ماضون بأمر الله، اعتباراً للإشراك بالله وترك شرعة الله، إيماناً بالله، فتوحيد وتصديق شرعته - إذاً - كفر به!.

واحتمال آخر أن ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ تخصهما بهم دون هؤلاء الأولاد، حيث بدلت السيئة لهم بالحسنة، فقد عفوا - إذاً - عن أنفسهم إصابة السيئة إن كانت هذه الإصابات قاصدة، رعونة لهم كأنهم يستحقون - فقط - الحسنة، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ هي شرّ أخذة، إذ قد يؤخذ الظالمون بإخبار مسبق كما في قوم لوط ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٢].

فلأن هؤلاء الأنكاد عمدوا إلى سدّ كل المنافذ حتى لا يسمعوا الحق ولا يروه ولا يفهموه، مهما مستهم البأساء والضراء إيقاظاً لفطرهم، وهو الخطوة الأخيرة لاهتدائهم دون اختيار لهم، فلم يزدهم إلّا عتواً ونفوراً، فلذلك يستحقون مباغتة العذاب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جيئته الفجيعة إلّا عندما أخذهم، كما ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ رغم ما أشعرتهم الضراء والسراء.

وهكذا تكون الدعوة الربانية أنه ما دامت الإمكانية لبلاغ الحجة لا يضنّ بها، فمن خطوة الحجة البالغة إلى العظة، وإلى الإنذار بالعاقبة، وإلى إيقاظ الفطرة بمختلف الأساليب، وحده الأخير هو إيقاظها رغم تعنّت أصحابها، ومن ثم استئصالهم حين استأصلت لهم كلّ الطرق لانتباههم، إذ لا خير فيهم إلّا ضرّ وشرّ للإنسانية.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٨١.